مذكرات خاصة

(٥) تجاربي في الحيـــــــــاة (*)

بقلم الأستاذ أسعد لطفي حسن

بلغت الثانية عشرة من عمري وانتقلت إلى القاهرة ، وبها مقر أهلي من أمي ، وكان لزاماً على أن أعيش مع بعضهم ، فأقمت في إحدى الدور ، وكان بها من أبناء أهلها فتيان وفتيات لا يخلو الحال من درس أخلاقهم والبحث في تكوينهم النفسي ، وقد مكنتني قرابتي لهم وصلتي بهم من التعمق في درس حالهم ؛ فكنت وأنا طفل مراهق أستطيع المكث في مجلس السيدات وأحضر أحاديثهن ، وأدرس أحوالهن ، كما مكنتني سكينتي وهدوئي من الوجود في مجتمعات الرجال.

وإن أحسن ما أذكره عن تلك الفترة : سيادة الحياء وسلطان الأدب ، فقد كان لهما النفوذ المطلق في البيئات المصرية ؛ لأنه مفروض أن يكون الأب سيد العائلة : له السيادة المطلقة ؛ ومن حقوقه أن يطيعه الجميع ، وكان الغرباء في الغالب يحتفظون بهذه المرتبة ، ولا يفرطون فيها ، ويحافظون عليها ، وكانت لهم الكلمة العليا ، ولا سيما إذا كانوا القدوة الحسنة ، يستعملون الحكمة في تصرفاتهم ، فلا يتشددون وقت التساهل ، ولا يفرطون وقت الشدة ، يهابهم أبناؤهم ويحفظون لهم مكانتهم ، حتى إذا ما دخلت بيتاً من بيوت الأسر ، رأيت أهله في سكون واحتشام يرفرف الوقار عليهم ، يتسابقون في إكرام الضيف ، والترحيب بالقادم ، ويتبسطون مع زائرهم ، ويطعمون عائدهم ، لا تسمع في أحاديثهم لغواً ، ولا باطلا ، يبدأ مجلسهم ويختتم بذكر الأدب ، حيث يكون الرجال في أماكنهم والنساء في خدورهن ؛ فكانت الكرامة والعفة والشمم أجمل ما تتحلى به الدور . كان الولد لا يجلس في مجلس أبيه إلا إذا أذن له ، ومع ذلك لا يقسو والده عليه ، ولا يحرمه حقوقه ، ولا يغلظ له القول ، ولا يهزأ برأيه ، بل يعظمه ويحترمه ويشركه معه في رأيه ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض يتسامرون ويتباحثون ويتناقشون ، فلا يملي الوالد إرادته على ولده ، وإنما روح الاحترام هي التي توحي إلى الولد معاملة أبيه ، وروح الشفقة والرحمة والمحبة هي التي تدفع الأب إلى إعزاز ولده ، لهذا

(*) راجع « المعرفة » ج ٩ و ١١ و ١٢ من السنة الأولى و ج ٥ من السنة الثانية .

كله كانت الحياة الأسرية : مشاركة فى الاهتمام، وتبادلا فى الاحترام ، ورابطة فى التأثير، وجامعة للألفة والحبة ؛ وليست هى — كما يتوهم بناء الجيل الحاضر — حجراً على الحرية ، واستبداداً فى الرأى، حتى كنت تجد رفع الكلفة بين الأب وأبيه مباحاً بل لكل منهما إتيان ما يرضيه فى مجلس الآخر .

كان فى الدار التى أقمت فيها أب وأولاد ثلاثة ، عمر الأب فوق الخمسين .

وكان لأكبر الأخوة المكانة والمهابة عند الآخرين ، وكان الجميع يزايلون البيت فى الصباح بعد أن يتساءلوا عن بعضهم بعضاً ، ويتقابلوا لتطمئن خواطرهم ، ثم يعودوا جميعاً فى وقت واحد ليجتمعوا إلى مائدة واحدة ، ويتقاسموا الواجبات من مواساة لمرضى أو تعزية فى موتى ، أو مشاركة فى أفراح ، وإذا انصرف بعضهم إلى تلك الواجبات استبقوا واحداً منهم لاستقبال الزائرين ، ولأداء الواجب نحوهم . وأجمل ما يسر الخاطر تلك الروابط الوثيقة بين الأهل والأقارب والأصدقاء ، فإنهم كانوا يقضون أوقات فراغهم فى الزاور ، وكانت الدور عامرة بأهلها ، لا يجلس على المقاهى — فى النادر — إلا السوقة والعامة ، وأما دور الفجور والخمور ، فقد كانت فى حيز العدم .

أذكر هذا وأوازنه بالحاضر ، تغيرت حال المنازل أولا ، وأصبحت الدور الكبيرة تضم فى طبقاتها المتعددة أسراً كثيرة من طبقات مختلفة بينها فوارق شديدة ، وقد يقيم الساكن ويبرح محل إقامته دون أن يعرف من معه ، وربما تضم البناية الواحدة خليطاً من الأجناس ، وقد يندس بينهم بعض من لا خلاق له ، وربما أصاب بعضهم هم أو غم فيحضر لمواساته من أقصى المدينة من يعرفه ، أو بعض أهله ، ولا يشاركه أحد من جيرانه ؛ وفى هذا تفكك الرابطة وانفصام عرى التآلف والتعارف ، وقد جر هذا وراءه عدم المبالاة ، فقد يفتقد أحد السكان بعض أعزائه ، فيه وصراخ النساء ، وعويل الأطفال ، حيث تسمع الحاكى (الفونوغراف) ، أو صوت الموسيقى ، وفى هذا من قلة الذوق وعدم المبالاة ما فيه من قسوة القلوب ، وتحجر الأفئدة ، وانعدام عاطفة الإمالة ، وربما نزلت بأحدهم نازلة فيستغيث وما من مغيث ، وقد ضاعت الشهامة ، والمروءة . . تلك نوازل وكوارث حلت بالآداب والعادات الشرقية ، فكانت علة شقاء الأسر وسبب تدهورها ، وتفكك عروتها ، وضياع مهابتها ، وفى ظلال الحرية المكذوبة ، وباطل الادعاء بها تجرأ الصغير على الكبير ، وتعاظم الحقير على الأمير ، فضاعت حكمة التفضيل والتعظيم ، ولا أعنى بذلك نظام جامد قديم أطلب استبداد المماليك ، واستعباد الصعاليك ، وإنما أندب مكانة كل فرد ، وأرجو وقوف كل عند الحد ، واحترام الصغير للكبير ، وإشفاق الكبير على الصغير ، لأن من الواجب على الكبير احترام الصغير ، كما يجب على الصغير توقير الكبير ، وواجب الجميع الاحتفاظ بكرامة بعضهم بعضاً .

فى ذلك الحى الذى نزلت بدار أهلى فيه، كان العم ابراهيم بائع (البليلة) ، والحاج عثمان بائع القصب،وأم يوسف بائعة الكرات والبصل الأخضر والفجل ، وغير هؤلاء من الباعة ، ولى مع كل واحد منهم موقف لابد من ذكره،ولى معهم جميعاً ملاحظات شتى فى شئون حياتهم العامة.

لاحظت أن المصرى أشد الناس قناعة،وأبذلهم لجهوده وقوته فى سبيل الحصول على قوته برأس مال قليل جداً،يطلب العيش ويسعى طول يومه ليحصل على ما يسد به رمقه راضياً مرضياً.

راجعت نفسى مرة وأنا أذكر أنها كانت تجارة قاسية؛ حيث كنت أشترى بمليمين (بليلة) من (عم ابراهيم) فيملأ لى وعاءه الذى أعد الكثير منه لطلاب البليلة وأصحاب الملاليم، فكنت أطلب الزيادة؛ وكان يشجعنى على ذلك باقى صغار الحى الذين يحيطون به ويطرب لأصواتهم المختلفة ونغماتهم (زَوِّد) ياعم ابراهيم ،وهو مسرور جد السرور باقبالهم عليه ومنشرح الصدر لاستهلاك بليلته،وأنا أحدث نفسى بأن مجموع ما فى القدر لا يتجاوز القدحين من القمح أو الذرة ، وأنه يساوى من الثمن القرشين أو الثلاثة على الأكثر،ومصاريف (المستوقد) نصف القرش،وثمن السكر لا يزيد على القرشين . أمام هذه التجارة التى لا يتجاوز رأس مالها الخمسة قروش يجلس (عم ابراهيم) ويقضى نصف نهاره،وأسعد أيامه أن يربح مايوازى رأس المال،أى خمسة قروش طول النهار، وهو عائل لزوج وأولاد ربما يتجاوز عددهم الخمسة من فتيان وفتيات ؛ وكان هانئاً سعيداً جد السعادة . وقد تطفلت على حياته بيحثها ، فوجدته يستأجر قاعة فى إحدى الدور القريبة منه، وفيها يقيم مع أولاده على حصير،ينامون بالليل ويجلسون بالنهار عليها، سعداء بما هم فيه من عيش، هو أحلى ما يشعرون به . وكنت أجد تعاوناً واخلاصاً إذ لا تغفل الزوجة عن إرسال أحد أولادها إلى أبيه فيجلس مكانه حيث لا تفوته الصلاة ، ولا تضن عليه بالطعام فتبعث إليه به حتى لا يضيع وقته فى الذهاب والعودة لمنزله ؛ وهكذا كانت حياة عم ابراهيم حياة الرضا والقناعة .

أما الحاج عثمان بائع القصب فكان أمره عجيباً جداً، فهو شيخ فوق الخمسين إلا أنه كان كثير النشاط، كثير الحركة، يحمل فوق كتفه مجموعة القصب، وينادى فى سكون الليل والمطر يهطل (سليم ياقصب)؛وأذكر فى ليلة ليلاء ممطرة جادت السماء فيها بوابل من المطر، والناس فى دورهم حول المواقد يتدفئون، والحاج عثمان وحده فى الطريق،وكنا جلوساً فى البيت،فسمعناه ينادى فأجمعنا الرأى على إنقاذه ، وأسرعت إليه وساومته على شراء ما معه.فتمسك بطلبه لأنى قدرت له بضاعته بأقل من قيمتها، فزهدنى البيع وهم بالانصراف إذ قال:« لا أرضى بالخسارة والرزق على الله » ، فبهرت جلاله عزة تمسكى؛وتراجعت فى قولى وأجبته إلى ما طلب،وقد رجوته البقاء معنا حتى الصباح فشكرنى وقال:« أولادى فى انتظارى ولو فى طلعة الفجر » ؛وتسلم منى ثمن القصب

وقال « الحمد لله » ، وحملت القصب إلى جماعتي ، وقصصت قصته عليهم ، وكان حديثنا خاصاً به. هذا الرجل على فطرته مملوء ثقة بنفسه،عامل قدر استطاعته،لم ينس الله فهو معتمد عليه ،ولم يفكر في غير أولاده.وما كان لشيطان الهوى من سلطان عليه ،ولم تنصرف نفسه إلى الشر .

وأعجب من أمره أن (أم يوسف) بائعة الفجل والكرات كانت زوجته،تشتغل هي بدورها في النهار، إذ تبرح دارها مبكرة إلى الغيط، فتحمل فجلها وكراتها و بصلها وتبيعه للناس ثم تعود برعيها إلى دارها وقد عهد إليها الحاج عثمان بشئونه،فتكون قد أحضرت معها الطعام فتهيئه وتمده،فيكون الحاج عثمان قد ترك الدار ليستحضر القصب،وربما هو بمحله إلى البيت يجدها قد أعدت له الطعام ،بينما يكون أولادها قد عادوا إما من الكتاب أو من المصنع الذى يشتغلون فيه ، أو من بيت المعلمة التى كانت ابنته تتعلم عندها خياطة الملابس ،ويجلس الأبوان والأولاد حولها كالهالة حول القمر . ثم يودعهم الحاج عثمان ليبيع قصبه ويعود إليهم بربحه ، وقد تمكن ذلك الأب المجد والأم العاملة من تربية أولادهما تربية صحيحة ، وساعدتهما عناية الله فكان أكبر الأولاد (الأسطى محمود النجار صاحب ورشة الموبيليات) ، وكان الثانى (المعلم حسن صاحب ورشة للرخام) . وقد أخذا قسطهما من الحياة وعرفا بالجد والنشاط والاستقامة ، فصاهرهما أمين افندى الموظف بمصلحة السكة الحديد ، والحاج عبد الفتاح التاجر بالغورية . وهكذا أوجد العمل الصالح والصدق فى المعاملة والإخلاص والوفاء عائلة أخذت مركزها تحت الشمس وثبتت شظف العيش ، وجعل الله للحاج عثمان وأم يوسف قرة عين لهما فى الحياة الدنيا . وقد توفاهما الله ، فوفدا عليه فى دار الخلد ، وقد قابلا نعمته ومنته بالحمد والشكر . وشيعت جنازة كل منهما عند دفنها بشهود من أهل الفضل والمهابة والوجاهة . وختمت حياتهما بالأعمال الصالحات . وقد كنت متتبعاً أخبار تلك الحياة فوجدتها المثل الصالح ، وتعارفت بالولدين الصالحين . وتعاملت معهما ، وقد ورثا عن والديهما الأمانة والاستقامة . وكانت تجارتهما رابحة ، وتضاعفت ثروتهما وهما فى حياء وتواضع . لم تلعب الحياة وزهوها برءوسهما،بل كانا يتحدثان بنعم الله ويفخران بما أوصلهما إليه من الخير،ويضربان به الأمثال. جالست أكبرهما ــ وقد طاب المقام ــ فطفق يسرد حقائق أمرهم دون تغيير أو تبديل ، وهو فخور بكسب ماله بالجد والنشاط ، معجب بأنه سرى من أبناء الفقراء . واستخلصت عباراته ــ كمجرب ــ بأن سر هذا النجاح العظيم هو عدم الاغترار بالنعمة والانقلاب السريع ، إذ كان هم أبيهم المحافظة على الآداب ، والعمل على القيام بما يرضى الله الذى أنعم عليهم بالتمسك بالدين والتحلى بفضائله . وقد كانت آخر كلمة له « يا أولادى ! لا تغتروا بما أنتم عليه من نعمة ، فتنسوا الذى أنعم عليكم فيسلبكم ما أعطاكم ، حافظوا على مرضاته واعملوا بما يرضيه ، ولا تنسوا طعم الفقر ، بل اذكروا الفقراء دائماً ، وآتوهم مما آتاكم الله » ، وهذه

عبارة حفظناها ونرجو أن يدوم توفيقنا» ، فدعوت الله لهم بالخير والبركة ، وقلت لهم إن مما يضاعف الثروة ويبارك فيها أداء فريضة الزكاة .

ذلك أن الزكاة في الأسلام هي أساس تضامن المسلمين والرباط المتين للإخاء والمحبة،فهي تغرس في قلوب السراة والأغنياء عواطف الرفق والرحمة والشفقة ، وتجعلهم يحسون آلام الجوع والحاجة والمسغبة ، فيذكرون إخوانهم في الانسانية ، ويشركونهم فيما يدفع عنهم غائلة الفاقة ، ويغرس فيهم الحمد والشكر لمن أنعم عليهم،فينمو السلام والوئام،ويموت الحقد والحسد،ولما فرط فيها المسلمون تفشى فيهم داء الضغينة،وانتشرت شهوة الاغتيال والانتقام،فلاحول ولا قوة إلا بالله.

كنت أتوق إلى المكث قليلا بمحل تجارة ذينك الشابين الهادئين ؛ لأني أمقت المقاهي والتسكع عليها،وأحرص على عدم ضياع وقتي فوق كراسيها،وكان ذلك المحل في حي وملئ ، كانت لي فيه مشاهد كثيرة ، منها ما يدعو للحسرة والأسف ، من إغراق عامة الباعة في الكذب والحلف الباطل ،فإنك لترى بائع الترمس ،ينشره أمام أعين الناس وهو وهم يعرفون أنه الترمس ولكنه ينادى ، أنه لوز ـ يا لوز يا ترمس ـ فماذا يريد من هذا التضليل إلا ما تعوده وتناقله من هذه التسمية،وهي خديعة منه ولسامعيه والعامة،وخرافة مفضوحة ينسبونها إلى الشيخ اسماعيل الإمبابي القائم ضريحه على النيل؟ ومثلا العنب ـ « زي بيض اليمام ياعنب »،« أبيض من التشلة وأحلى من الخ »...وكثير من هذه الصغائر التي يتلهى عنها العقلاء،وهي في الواقع مقياس للأخلاق ، وإن قال قائل إنه نوع من الباماة أو تحلية بضاعة ؛ ولكنه تعويد على الكذب والغش يتدرج بالباعة إلى أحط المواقف ،ودليلنا على ذلك حلفهم الكاذب في تقدير الثمن والمساومة فيه ، إذ يجيبك عند سؤاله كم الثمن ؟ ؟ بثلاثة أو أربعة أمثاله ،وإذا راجعته يغلظ لك الأيمان . فإذا عرضت عليه ماتقبله من الأسعار،وتمسكت به وهو ربح ماقدره وبدأت في الإعراض عنه ، رضي وقبل معتذراً بالضرورة ؛ معتمداً على خيانته في الوزن،فينتقص لك القدر الذي اتفقت معه عليه.فإذا راجعته وأظهرت خيانته تطاول عليك،ولا تجد من يوقفه عند حده،وبذا فقد العامة كل ناحية من نواحي الأمانة والذمة والشرف،وهجروا الفضيلة ولم يعرفوا من الدين غير اسمه ، إذ لو عرفوه ما وقعوا في هذه التهلكة . انحرفوا في الأخلاق وابتعدوا عن الإيمان فضلوا سواء السبيل، ولو كانوا قليلا لهان الأمر،ولكنهم العامة من بائع ومشتر ، وكلاهما يسرف في الحلف الكاذب والتهويش والتضليل . وقد يستخدم الكثير منهم الطلاق يميناًقاطعة يلقيها ولاوازع له من نفسه إن كان صادقا أو كاذبا. ولا مراجع له إن كان يعاشر زوجه وهي طالق منه.ولا محاسب ولا رقيب عليه إن كان ينتج منها ذرية من حلال أو سفاح، وضل منهم من يتصدرون للفتوى بصحة الطلاق أو بطلانه.وهم شر من أهل الضلالة والتضليل. اللهم رحمة يهدى الأمة الهاربة من أهلها والمهملة من المسئولين عنها .

أحمد لطفي حسن